لغو الصيف

للدكتور طه حسين

أيهما خير يا آنسة : أن نفترق الآن لنلتقى غدا ، أم أن نظل كما نحن رفيقين فى السفر والاقامة ؟ قالت : بل أن نفترق لنلتقى بعد شهرين فى القاهرة أو بعد شهر فى باريس . وحسبنا ان قد أقمنا معاً أسبوعاً كاملا فى هذه المدينة من مدن البحر نلتقى اذا أصبحنا ، ونلتقى اذا أمسينا ولا يفرق بيننا إلا الليل ، قال : فانك اذاً قد سئمت هذا اللقاء وطال عليك أمده ، وأخذت تودين لو فرقت بيننا النوى دهرا طويلا أو قصيرا ! وما رأيك فى أنى بعيد كل البعد عن هذا السأم ، كاره كل الكره لهذا الفراق الذى تحبينه وتطمحين اليه ؟ قالت : لك أن تفهم رأيي كما أحببت ، وأن تقدره كما شئت ، وأن ترضى عنه أو تسخط عليه ، فمن المحقق أنى لم أره لك وانما رأيته لنفسى ، ومن المحقق أنى لم أعلنه اليك إلا وأنا محتملة لنتائجه عالمة بموقعه من نفسك وتأثيره فيها ، ولن يغير من رأيي ما تبدى ء وما تعيد ، فقل لى : الى اللقاء ودعنى أهيىء أمرى فقد دنت ساعة السفر ، قال : ماشككت فى أن ساعة السفر قد دنت ، ولكن الذى أشك فيه هو أن دنو هذه الساعة يضطرنا الى أن نفترق ، فقد نستطيع أن نسافر معا كما أقمنا معا . قالت : فانى لا أريد . قال : ما رأيت كاليوم ظرفا ولا رفقا ولا حسن مودة للاصدقاء ، سنفترق يا آنسة مادمت حريصة على هذا الفراق فهل تأذنين فى أن أصحبك إلى القطار . قالت : ولا هذا فانى لا أحب هذا الوداع السريع البطىء فى وقت واحد . ولا أحب أن يفترق الناس لأن قوة غريبة عنهم تكرههم على أن يفترقوا فلنفترق منذ الآن وا كتب إلى ، ولعلنا نستطيع أن نلتقى فى باريس . فان أعيانا ذلك ففى القاهرة متسع للقاء المتصل والحديث الطويل . ثم صافحته فى قوة وعلى وجهها ابتسام يشبه العبوس ، وفى وجهه عبوس يشبه الابتسام .

ولم يكد يقبل المساء حتى كانت ماضية فى قراءتها لا يصرفها عنها شىء ، كما كان قطارها السريع ماضياً فى سيره لا يقفه عنه شىء وكانت حركة الناس من حولها لا تسكن ، وحديث الناس من حولها لا ينقطع ، وأصوات الناس من حولها لا تهدأ . ولكن شيئا من ذلك لم يكن ليلهيها عن هذا الكتاب الذى غرقت فيه . حتى اذا انتهت بها القراءة إلى شىء من الجهد والاعياء ، ووضعت كتابها لتستريح ورفعت رأسها تجيل الطرف فيما حولها لم يرعها الا صديقها الأديب جالسا أمامها جلسة المتأدب الخاضع الذى ينتظر أن يفرغ سيده له ويلتفت اليه . فلما رأته لم تدهش ولم تنكر ، ولكنها أظهرت ضيقا به وغضبا عليه ، وقالت فى لهجة حازمة : أتعلم أنى أكره هذا النوع من اللعب ، وأنك توشك أن تغيظنى وتحفظنى وتصرفنى عنك ان مضيت فيه ؟ قال فى صوت خافت غير مطمئن : أعلم ذلك حق العلم وآلم له أشد الألم ، ولو استطعت أن أكون عند ما تحبين ما أثقلت عليك ، ولا ترددت فى طاعتك ، ولا تحولت عما يرضيك . ولكن ما رأيك فى أنى لا أحب أن أموت . قالت ولم تملك نفسها من ضحك غالبته فغلبها : لا تحب أن تموت ؟ قال نعم لا أحب أن أموت ، ألم تفهمى بعد ؟ قالت : ومتى رأيتنى أحل الالغاز ؟ قال : والغريب أنك قد عاشرت الفرنسيين فأطلت عشرتهم وأتقنت لغتهم وآدابهم الرفيعة والشعبية حتى كأنك واحدة منهم . فكيف يغيب عنك ما يتحدثون به كلما هموا برحيل أو فراق ، وهل تعلمين شعراً وجد عددا ضخما من الرواة ، تختلف طبقاتهم وتتفاوت منازلهم كهذا الشعر الذى ينشده الفرنسيون كلما هموا أن يفترقوا انما السفر ضرب من الموت بالقياس إلى المحبين ، قالت : وقد نسيت غضبها واطمأنت إلى طبعها ، وخرجت من التكلف ولاءمت بين حديثها ومظهرها ، وبين ما وجدت من الغبطة بلقائه الذى كانت ترجوه ، والذى كانت تغضب وتحزن لو لم تظفر به ، فانت إذاً تريد إلى هذا اللغو من الحديث . قال أنت تزعمين أنه لغو أما أنا فأراه الجد كل الجد ، والحق كل الحق . ولولا أن السفر ضرب من الموت لما كرهه المحبون ، ولا سخط عليه الشعراء ، ولا تغنوا آلامه وأحزانه . ولولا أن السفر ضرب من الموت حين يفرق بين الناس لما رأيتنى الآن فى هذا المكان بعد ان افترقنا على أن لا نلتقى حتى يمضى شهر او أكثر من شهر .

ولكنى فكرت بعد أن افترقنا ، فرأيت أنى ميت بالقياس الى كل الأصدقاء الذين تركتهم فى مصر ، مهمل بالقياس الى كل هؤلاء الناس الذين كانوا حولى فى نيس ، والذين سألقاهم فى باريس ، وأنى لاحتفظ من الحياة إلا بشعاع ضئيل ، هو هذا الذى أحسه حين أصحبك وأسمع لك وأتحدث اليك ، فشق على أن أجود بهذا الشعاع ، وأن أسلم نفسى للموت المطبق والاهمال المطلق شهراً وبعض شهر ، ولولا خوف الموت والضيق بالاهمال ما خرجت عن طاعتك ولا خالفت عن أمرك ، ولا عرضت نفسى لهذا الغضب اللاذع وهذه الثورة المهينة . قالت : فقد عدت إلى ذكر الغضب والثورة كأنك تريد أن أنكرهما أو أعتذر منهما أو أنبئك بأنى تكلفتهما تكلفا ، واصطنعتهما اصطناعا . قال :

لا تنكرى شيئا ولا تعذرى من شيء ، فأنا معترف بأنى ملح ، وأنا معترف بأنى مثقل فى الالحاح ، ولكنك تعودت احتمالا لهـــذا الثقـل . وتجاوزا عن هـذا الالحاح ، فدعى حديثهما وحديث الغضب والثورة ، وحدثينى عن هذا الكتاب الذى لم تكادى تقبلين عليه حتى ألهاك عن كل شيء ، وصرفك حتى عن هذه المناظر البديعة الخلابة التى تعرضها عليك الطبيعة عرضاً سريعاً أثناء سير القطار . قالت : هذا كتاب تعجب إن عرفت أنى أقرأه للمرة الخامسة ، فأنا لا أعرف كتابا أهون ولا أيسر ولا أمتع ولا ألذ من هذا الكتاب أثناء السفر الطويل ، أو حين يلح على الحزن الثقيل . هذا كتاب من كتب كورتلين ، قال : هو كتاب « قطار الساعة الثامنة والدقيقة السابعة والاربعين » قالت : هو ذاك . قال : فانى لم أقرأه خمس مرات ، ولكنى قرأته ثلاثا ، ولولا أنى علمت أنى سأصحبك فى القطار لقرأته للمرة الرابعة ! فانا مثلك معجب بهذا الكتاب إعجابا لاحد له ، والغريب أنى لاأدرى بماذا أعجب من هذا الكتاب ! بمعانيه أم بالفاظه أم بأسلوبه ، أم بهذه الصور الرائعة التى يعرضها علينا فى غير انقطاع ؟ أم بهذا كله مما أعرفه ، ومما أحسه دون أن أعرفه ، فهذا الكتاب عندى آية من آيات الأدب الفرنسى . قالت : وعند كثير من الفرنسيين أيضا ، وإذا لم تكذبنى الذاكرة فقد كان أناتول فرانس مشغوفا به شغفاً عظيما ، لست أدرى أكان يعده بين آيات الأدب أم لا . وانى لأرجو أنه لم يضعه بين هذه الآيات فقد كان أناتول فرانس يضيق بآيات البيان ، ويرى أنها ثقيلة مملة ، وليس فى هذا الكتاب شيء من الثقل ولا الاملال . قال : ومع ذلك فان فى هذا الكتاب ألفاظا لاتكاد تحصى وجملا لايكاد يبلغها العد ، وكلها خارج على النحو الفرنسى ، مخالف لأساليب البيان المألوف . قالت : فهذا مظهر من مظاهر الجمال فى هذا الكتاب ، ومصدر من مصادر الاعجاب به ، وسبب من هذه الأسباب التى تضطرنا إلى مراجعة النظر فيه . وما رأيك لو أن كورتلين أنطق أبطاله بهذه اللغة الفرنسية الفصحى ، وأجرى على ألسنتهم هذه الجمل الأدبية الرائعة التى نجدها فى كتب كورتلين نفسه وفى كتب غيره من الأدباء ؟ . اذاً لما وجدت فى الكتاب لذة كهذه اللذة التى أجدها الآن ، ولعلى أن أعجز عن المضى فى قراءته إلى آخره فضلا عن أن أقرأه مرات . إن للغة الفصحى خطرها وقيمتها ، وهى مقياس البيان وظرف الادب ، ولكنها قد تسخف وتسمج اذا جرى بها لسان هذا الجندى الذى اتخذه كورتلين بطلا لقصته . قال : هذا حق ومهما أنس فلا أستطيع أن أنسى هذه الجملة الطريفة التى يرددها جندى كورتلين كلما وقف موقف الحرج أمام الكابتن :

Mon capitaine j'va vous dire une bonne chose.

فلولا هذه اللحنة الظريفة الشائعة ، التى تجرى بها ألسنة العامة من الفرنسيين والتى أذاعها كورتلين ، حتى تفكهت بها الخاصة لما كان لهذه الجملة موقع فى النفس حسن ، ولا منزل من القلب عجيب . قالت : وكل كلام الجندى وكلام رفاقه ظريف محبب إلى النفوس ، لأن مافيه من اللحن والتواء الأسلوب يصور روح الشعب كما هى صريحة مستقيمة لاغموض فيها ولا التواء . قال فأنت إذاً من أصدقاء اللغة العامية وأنصارها ، وماذا تصنعين لو عرف أعلام البيان فى مصر عنك هذا الرأى ؟ . قالت : لاأصنع شيئا فليس يعنينى أن يعرفنى أو ينكرنى أعلام البيان فى مصر أو فى غير مصر . وما تعودت قط أن أرى الرأى فاسأل نفسى عن حظه من رضى الناس أو غضبهم . قال : قد علمت ذلك حق العلم وجربته حق التجربة ، ولم تمض ساعات على هذه التجربة اللذيذة الاليمة معا . ألست قد زعمت لى ؟ قالت : لم أزعم لك شيئا ! فلا تعبث ولا تفسد علينا بهذا الاستطراد مانحن فيه من الحديث لست من أصدقاء اللغة العامية ، ولكنى لست من أعدائها . وما أذكر أنى كتبت شيئا باللغة العامية ، وما أظن أنى سأكتب بها شيئا ؛ لأنى لاأحب ذلك ، ولو أحببته ماقدرت عليه . ولست أرضى أن تصبح اللغة العامية لغة البيان الأدبى ، ولا أعطف على كاتب يتعمد الكتابة بها ويتخذها ترجمانا لما يريد أن يعرضه من الخواطر والآراء ، ولكنى على هذا كله لا أستطيع أن أمحو هذه اللغة ، ولا أستطيع أن أنكر ان لها جمالا تنفرد به أحيانا وتعجز عنه اللغة الفصحى . ولا أستطيع أن أمحوها من قلوب الأشخاص الشعبيين وأضع مكانها اللغة الفصحى ، وأوفق مع ذلك الى تصوير هؤلاء الأشخاص الشعبيين تصويرا صادقا كل الصدق ، جيداً كل الجودة ، متقنا كل الاتقان . قال وهو يبتسم ابتسامة ملؤها المكر والخداع : ألا تعجبين أن ينتهى بنا الحديث عن كورتلين الى الحديث عن توفيق الحكيم ؟ قالت : ومن توفيق الحكيم ؟ ماسمعت به قبل اليوم ! . قال : فأنت اذاً من أهل الكهف . قالت : وأى عجب فى أن أكون من أهل الكهف ، ومتى زعمت لك انى أعرف الناس جميعا أو أقرأ للناس جميعا ؟! . قال فان أهل الكهف عنوان قصة لتوفيق الحكيم هذا الذى لم تعرفيه ولم تسمعى به ، وأؤكد لك أنى أكره لك هذا الجهل . فتوفيق الحكيم شاب خليق أن يعرف ، ومن العيب كل العيب ان يجهله أديب شرقى . ولكنك قد أقررت على نفسك بأنك من أهل الكهف فلا لوم ولا تثريب . قالت : قد أقررت وأنا خليقة أن ألام فأنبئنى عن توفيق الحكيم ، وكيف انتهينا من حديث

« البقية على صفحة ٤٠ »